

العبادة.. تواصل مستمر مع الخالق



«قال تعالى: (وَأَنزَلْنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتََمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّ ذِي الْأَرْزَامِ لَأَسَدٌ لَا أُخْفِيهَا لِيَتَّخِذَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَشْعَىٰ * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنٌ لَا يُؤْمِنُ بِهِهَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ) (طه / 13-16).

العبادة تواصل مع الخالق، تُذَوِّرُ قلوبنا، وتُغَيِّرُ سلوكنا، وتُهدينا إلى طريق الاستقامة.

كان النبي موسى (ع) يسير مع عياله في الصحراء، فرأى عن بُعد ناراً لم يعلم ماهيتها، فطلب من أهله أن يمشوا مكانهم ليستطلع النار، لعلها تعينهم على إنارة الطريق أو التدفئة والاستخدام، فلما وصل إليها تبين له أنها نور النبوة.

تحدث الآيات عن بدء الوحي لموسى (ع) واختياره كنبي مكلّف ليكون رسلاً إلى الناس، يحمل شريعة الله تعالى. فاختيار الأنبياء بيد الله تعالى، الذي يقرّر من يكون نبياً، والرسالة التي يحملها، وإذا ما كانت رسالة شاملة كما مع النبي محمد (ص)، أو كانت رسالة أولي العزم كما مع موسى (ع)، أو كانت رسالة لنبي في مدينة لجماعة محدودة كما مع الكثير من الأنبياء الذين بلغ عددهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، أو كانت رسالة لنبي في مدينة لجماعة محدودة كما مع الكثير من الأنبياء الذين بلغ عددهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، كما في بعض الروايات.

قال تعالى لموسى (ع): (وَأَنزَلْنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتََمِعْ لِمَا يُوحَىٰ)، فما هو هذا الوحي؟ كلام الله تعالى موسى (ع) من الوادي الأيمن، من خلف الشجرة، لكنه ليس كلاماً على الطريقة البشرية، بل صوت سمعه موسى (ع) من خلق الله تعالى، فالله تعالى لا يظهر لأحد بمن فيهم الأنبياء، لأنّه مطلق لا شكل له ولا حدود.

(إِنِّي أَنذِرُكَ أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)، يا موسى: أنا إلهي، ولا إله غيري، واحدٌ أحد. (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (الأنبياء / 22)، ولاختلفت أوامر كل واحد منهم عن الآخرين، واختل النظام الكوني. إذاً هو إلهٌ واحد، لا شريك له، (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الإخلاص / 4). فاعبدي يا موسى، وهي دعوة لجميع البشر إلى عبادة إلهي تعالى، وما إرسال الأنبياء إلى الناس إلا ليعبدوا إلهي تعالى، لا لأن إلهي تعالى بحاجة إلى عبادتنا (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران / 97)، ولكن ليستفيد المخلوق المحتاج والناقص والعاجز من علاقته بالخالق الكامل والقادر، فالعبادة اعتراف بقدرة إلهي تعالى ونعمته، وأداء يهدي الإنسان إلى الطريق الصحيح.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)، فالصلاة ذكرٌ إلهي تعالى وتقرُّبٌ منه، وهي نموذج من العبادات التي تقربنا إلى إلهي تعالى، كالصوم والزكاة والحج والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

تتطلب العبادات نية القربة إلى إلهي تعالى، وهي نتيجة الإيمان والطاعة، وليست لفظة النية مطلوبة، وإنما عيشها فعلياً أثناء قيام الإنسان بالعبادة، فلا تتقوَّم العبادة من دون النية.

أما الواجبات الأخرى كالمعاملات مثل الإنفاق على الزوجة والأولاد، أو الطهارة المائية من النجاسة، أو حدود الحلال من المعاملات كضوابط عقد البيع أو حرمة الإقراض الربوي... فهي واجبات توصلية، أي أنها توصل إلى إلهي تعالى، ولكن لا يشترط فيها نية القربة إلى إلهي تعالى. فلو أنفق على زوجته وأولاده ولم ينمو القربة إلى إلهي تعالى، وإنما أدى الحق كواجب أو لاعتقاده بمسؤوليته عنه، فقد قام بواجبه ولا شيء عليه، وكذلك لو تنجست يده فمرَّرها من غير قصد تحت الماء الطاهر تطهر من دون نية التطهير، وهذا يختلف عن الوضوء أو الغسل اللذين يشترط فيهما نية القربة لصحة العمل.

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيَذَرِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)، ولم يخبرنا إلهي تعالى عن وقت القيامة ووقت الساعة، ما يجعلنا مختارين لتصرفاتنا من دون ضغط التوقيت ليوم القيامة.

(فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَذَرُوهَا، فلا يمنعك عن يوم القيامة، أي عن الاستقامة التي تكون سبباً لنجاتك في يوم القيامة، من لا يتبع إلهي تعالى بل يتبع هواه الذي يسقطه في عذاب جهنم.

نحن مأمورون بالعبادة إلهي تعالى، فهي التي تعزز صلتنا به، وتقوي علاقتنا به، وتؤثر على مسار حياتنا.

العبادة تعزيزٌ للعلاقة مع إلهي تعالى، من خلالها نكون قد استمدينا منه، وحققنا مرضاته، لنصل إلى أعلى المستويات الإنسانية التي لا تتحقق إلا بالعلاقة معه، مصدر كلِّ الخيرات والعطاءات، ومصدر الكمال والتوفيق.

يقول تعالى: (أَمَّا مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا) (الزُّمَر / 9)، هذا الإنسان الذي يصلِّي صلاة الليل، ويتعبَّد إلهي تعالى والناس نيام، (يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ) (الزُّمَر / 9)، يريد التقرب إلى إلهي تعالى ليسوي صحيفته أعماله لمصلحة الطاعة، ويرجو رحمة ربه، والزيادة من فضله بغير حساب. (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّنَا يَنْتَذِرُونَ أُولَئِكَ الْآلِيَابِ) (الزُّمَر / 9)، هل يستوي الذي يعلم حقيقة العبادة وآثارها، والجاهل الذي لا يعرف قيمة ومعنى الصلاة في جوف الليل المظلم؟ العاقل

هو الذي يلجأ إلى العبادة، ويتذلل ☐ تعالى ويتقرب منه، فمع عبادة ☐ تعالى لا حدود للرفي ودرجات الكمال والسعادة البشرية، تصاحبها المغفرة والرضوان.

قال رسول ☐ (ص): "إن ☐ جلّ جلاله أوحى إلى الدنيا: أتعبي من خدامك واخلمي من رفصك، إن العبد إذا تخلّى بسيدده في جوف الليل المظلم وناجاه، أثبت ☐ الذنور في قلبه، فإذا قال: يا ربّ يا ربّ، ناداهُ الجليلُ جلّ جلاله: لبيّك عبي، سلني أعطك، وتوكل علىّ أكفك. ثمّ يقولُ جلّ جلاله للملائكة: يا ملائكتي، انظروا إلى عبي، فقد تخلّى بي في جوف الليل المظلم، والبطلون لاهون، والغافلون نيام، إشهدوا أنّي قد عفرت له". هل يدرك الإنسان معنى أن يخاطب ☐ تعالى الملائكة ويشهدهم بأنّه قد غفر لعبده؟ الربّ دائمٌ مع عبادة ☐ تعالى، تعطي القليل ويعطيك الكثير، وهذا القليل الذي تُعطيه يترد إيجاباً عليك من ☐ الغني عن العالمين.

يقول الإمام عليّ (ع) في نهج البلاغة: "طوبى لنفس أدّت إلى ربّها فرصّها، وعركت بجنديها بؤسّها، وهجرت في الليل غمّضّها، حتى إذا غلب الكرى عليها، افتترشت أرضها، وتوسّدت كفّها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجاغت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم، شافهم، وتقشّعت بطول استغفارهم دنوبهم، أولئك حزّب ☐ ألا إنّ حزّب ☐ هم المفلحون". هذا المقام الرفيع هو للعابدين الراكعين الساجدين الخاشعين ☐ تعالى، والمنفّذين للأوامر الإلهية، وأولئك هم المفلحون.

انظر إلى عبادة أمير المؤمنين عليّ (ع) الذي يقول: "ما رأيت شيئاً إلا رأيتُ ☐ قبله"، حيث اختلط كيانه بالإيمان الذي أزال الحواجز، ليكون كلّ شيء مع ☐، وهذا هو العيش العملي لقوله تعالى: (وهو معكم أين ما كنتم) (الحديد/ 4)، إنّها بركات ونور الطاعة التي توصل إلى هذا المقام العظيم.

تتغيّر حياة الناس، وتتغيّر طريقة التفكير لديهم، ويتغيّر سلوكهم، إذا عبدوا ☐ وتفاعلا معه. فلا يمكن أن ترتكب معصية إذا عشت وجود ☐ تعالى معك في كلّ لحظة، كما لا يمكن أن ترتكبها لو كنت تعيش رقابة ☐ تعالى كما تحذر من رقابة أخيك أو أبيك أو زميلك، فاعمل واجهد نفسك لتعيش العبادة أنساً وتفاعلاً، فتكون مع ☐ ويكون معك.

تساعد العبادة على التقوى التي تحمي من المعاصي والآثام، قال تعالى: (يا أيّها النّاس أعبدوا ربّكم الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة/ 21).

وبما أنّ الإنسان يحتاج إلى قوة يلجأ إليها لتساعده وتعينه، فأى قوة أقدر وأعظم من قوة الخالق العليّ القدير؟ وماذا سيربح العابدون لغير ☐ تعالى؟ (قال أفنّ عبدون من دون اللّهِ ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم) (الأنبياء/ 66). لقد فطر ☐ تعالى الإنسان على غرائز ثابتة، ومنها غريزة التدين، فإمّا أن نعبد ☐ تعالى، وإمّا أن نعبد الصنم أو الشهوة أو الهوى، إذ لا بدّ للإنسان أن يكون له معبود، ولكن غير ☐ تعالى مسلوب القدرة والسيطرة، لا يضر ولا ينفع، أما ☐ تعالى فهو الخالق المدبر، الذي بيده كلّ شيء وإليه ترجعون.

جاور النبيّ إبراهيم (ع) أباه آزر، حول عبادة ☐ تعالى في مقابل عبادته وقومه للأصنام، مبيناً بالدليل والبرهان سبب الدعوة إلى عبادة ☐ تعالى: (واتلّ عليّهم نبيّاً إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا زعبد آصناماً فنظّل لهما عاكفين * قال هلّ يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم * أو يضرون * قالوا بلّ وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإن ربهم عدوّ لي وإلا ربّ العالمين * الَّذِي خَلَقَنِي فَهوَ يَهْدِين * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهوَ يَشْفِين * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين) (الشعراء/ 82-69). كلّ الأمور بيد ☐ تعالى، وكلّ العطايا من عند ☐ تعالى، وكلّ حركة الحياة وما فيها بإرادة ☐ تعالى، فإذا ما عبد الإنسان ربّه، يكون قد وجّهه غريزة التدين بشكل سليم، ما يريحه معنوياً وعملياً، فيريح الدنيا والآخرة.

لا تقتصر عبادة الأصنام على عبادة الحجارة الصمّاء، إذ يوجد ما هو أسوأ من الأصنام، كالشهوات،

والانحراف، والمال، والسلطة... التي إذا تمسّك بها الإنسان، وضحت من أجلها، وتعلّق بها، كان عابداً لها من دون الله تعالى. أما العابد لله تعالى فهو في مسارٍ مناقض تماماً لعبدة الأصنام، يعرض عن المحرمات والشهوات والهوى ويواجهها، لأنّها تحرفه عن خياره المستقيم.

عن الإمام الرضا (ع): "إن قال قائل: لم تعبد دهم؟ قيل: "لئلا يكونوا ناسين لذكره، ولا تاركين لأدبه، ولا لاهين عن أمره ونهيه، إذا كان فيه صلاحهم وفسادهم وقوامهم، فلو تركوا بغير تعبد، لطال عليهم الأمد فقتلوا بهم". محور العبادة لله تعالى استمرار التواصل مع الله تعالى وذكره الدائم، ما يساعد على مواصلة طريق الهدى.

3- آثار العبادة:

قال تعالى: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) (العنكبوت/ 45). عندما تصلي قربة إلى الله تعالى، فإنّك تعبّد عن التزامك بأوامر الله تعالى ونواهيه، وتكون بتواصلك مع الله منبتهاً إلى خطواتك اليومية، ومراعياً لمسائل الحلال والحرام، ما يؤدي بشكل انسيابي إلى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وهذه النتيجة من آثار الصلاة الحقيقية.

قال رسول الله (ص) لأمر المؤمنين عليّ (ع): "يا علي! إنما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهر جارٍ على باب أحدكم، فما يظن أحدكم لو كان في جسده درن، ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات، أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي"، فالصلاة عملية تطهير، خمس مرات في اليوم حيث يستيقظ الإنسان صباحاً ويستفتح، يذكر الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئنن القلوب) (الرعد/ 28)، ثم من الصباح إلى الظهر يتعامل مع الناس، فيحسن ويُسئ، فيحين وقت صلاة الظهر فيصلّي ويستغفر الله تعالى، ما يوصّب سلوكه وحسن تعامله مع الناس، ومع صلاة العصر يزداد انتباهه. ثم من العصر إلى المغرب، يحسن ويُسئ، فيحين وقت صلاة المغرب، فيصلّي ويستغفر، ثم يختم بصلاة العشاء ويذهب إلى النوم، فيكون قد بدأ يومه بطاعة الله تعالى، كذلك وتوسطه طاعة الله تعالى، وأنهاء كذلك، ما يطوّر الانحراف قبل أن يستفحل، ويُعالج الانحرافات الطارئة من بدايتها. إنّ التواصل اليومي خمس مرات مع الله تعالى، يجعل الفاصل الزمني بين الاتصال والآخر قصيراً، والغفلة عن ذكر الله تعالى محدودة، ما ينبّه الإنسان ليستدرّك قبل أن تتفاقم المعاصي وتزداد.

وقال تعالى عن الصوم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة/ 183). فالصيام يهدف إلى تقوية الإرادة ليمتلك الإنسان قدرة حماية نفسه من الانزلاق، وهذه الإرادة تعزّز حالة التقوى التي تشمل أعمال الإنسان في حياته، وقوله لعلكم تتقون، لارتباط التقوى بأداء حق الصيام بالشكل والمضمون الصحيحين.

في الحديث القدسي سأل النبي (ص) أثناء المعراج: "يا رب، وما ميراث الصوم؟ فأجاب: الصوم يورث الحكمة، والحكمة تورث المعرفة، والمعرفة تورث اليقين، فإذا استيقن العبد، لا يبالي أصبح بعسرٍ أو يسرٍ". انظر إلى هذه الآثار العظيمة للصوم، والتي تتدرج نحو الكمال، بحيث لا يبالي العبد إذا ما أصاب نعمة أو نقمة، لأنّه ناظرٌ إلى نجاحه في الامتحان وتحقيق مرضاة الله تعالى.

أمرنا الله تعالى بأعمال محدّدة واجبة كعبادات، إذا ما التزمنا بها بشروطها، حصداً آثارها في السلوك والمعاملات، فعن الإمام السجاد (ع): "يقول الله تعالى: يا بن آدم، اعمل بما افترضت عليك تكن من أعبد الناس".

4- صفات العابد:

سبع صفات بيّنها رسول الله (ص) في حديث المعراج، عندما خاطبه الله تعالى:

"يا أحمد، هل تدري متى يكون لي العبد عابداً؟"

قال (ص): لا يا رب؟

قال تعالى: "إذا اجتمع فيه سبع خصال: ورعٌ يحجزه عن المحارم، وصمتٌ يكفه عما لا يعنيه، وخوفٌ يزداد كلَّ يوم من بكائه، وحياءٌ يستحي مني في الخلاء، وأكلٌ ما لا بدُّ منه، وبُغضٌ الدنيا لبغضي لها، ويحبُّ الأخيار لحبي إياهم". اسألوا الله تعالى أن تتصفوا بها، واعلموا أن بإمكانكم أن تصلوا إليها جميعاً، بتطبيق ما فرضه الله تعالى، وما أمر به من العبادات والمعاملات. ►

المصدر: كتاب مفاتيح السعادة